محاضرة رقم: 07 أسباب النّزول

أولا: تعريف سبب النّزول

الحقيقة اللّغوية للفظ السّبب تردّ بمعاني كثيرة

الحبل: قال تعالى " ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ " الحج 15.

الطريق: تقول العرب ليس لي إليه سبب أي طريق

الوصائل: قال تعالى "﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾" البقرة 166.

الحقيقة الاصطلاحية للفظ السبب .

- **عند الأصوليين** " وصف ظاهر منضبط يثبت به الحكم وعلامته أنه يلزم من وجوده الوجود ويلزم من عدمه العدم"[1]
- **عند علماء القرآن : سبب النزول بالمعنى الإضافي:**

" هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه"، أو "هو تلك الوقائع والظروف والملابسات التي حدثت في زمن النبي عليه الصلاة والسلام أو السؤال الذي وجه إليه، ونزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه".

- محترزات:

قولنا :" أيام وقوعه" قيد لا بد منه للاحتراز عن الآية أو الآيات التي تنزل ابتداء من غير سبب بينما هي تتحدث عن بعض الوقائع والأحوال الماضية أو المستقبلة كبعض قصص الأنبياء السابقين وأممهم وكالحديث عن السّاعة وما يتصل بها وهو كثير في القرآن الكريم.

[1] ، أصول الفقه الصنعاني ، ص51

ثانيا: مراتب أسباب النّزول

من التّعريف السّابق تبيّن أنّ أسباب النّزول مترتّبة إما على وقائع أو أسئلة ، وفيما يلي سوق لنماذج تجلي المراد.

01. الوقائع : تكون إما خصومات، أو أخطاء أو تمنيات تمناها بعضهم.

أ. أمثلة عن الخصومات:

كالخلاف الذي شجر بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزرج بدسيسة من أعداء الله اليهود حتى تنادوا: السلاح السلاح ونزل بسببه تلك الآيات الحكيمة في سورة آل عمران من أول قوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} إلى آيات أخرى بعدها هي من أروع ما ينفر من الانقسام والشقاق ويرغب في المحبة والوحدة والاتفاق. فكانت هذه القصة سببا في نزول هذه الآيات.

ب. أمثلة عن الأخطاء:

كالسكران الذي أمّ الناس في صلاته وهو في نشوته ثم قرأ السورة بعد الفاتحة فقال: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} "أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ" وحذف لفظ "لا" من {لا أَعْبُدُ} فنزلت الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} في سورة النساء.

وتروى القصة بطريق آخر عن عمرو بن العاص حين صنع لهم عبد الرحمان بن عوف طعاما وسقاهم خمرا فحضرت الصلاة فصلى بهم عمرو فقرأ " قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون"، فكانت هذه الأخطاء أسبابا في نزول الآية السابقة

ج. أمثلة عن التمنيات:

ويمثل لها العلماء بموافقات عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال وافقت ربي في ثلاث، قلت لو اتخذا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت " ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ " البقرة 125 ، وقلت يا رسول الله إنّ نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب " ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (59)الأحزاب . واجتمع على رسول الله نساؤه في الغيرة فقلت عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن فنزلت " ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ " التحريم 05 .

02 . الأسئلة: تكون إما أسئلة من المسلمين يطرحونها على النبي الكريم لغرض التعلم، وإما أن تكون من اليهود أو الكفار لغرض التعجيز.

أ . أمثلة عن أسئلة المسلمين:

- سؤالهم عن الخمر والميسر، فأنزل الله تعالى " ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾" البقرة 219
- سؤالهم عن المحيض فأنزل الله تعالى " ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ"﴾ البقرة 222.

ب . أمثلة عن أسئلة اليهود:

- سؤالهم عن الرّوح فأنزل "﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا"﴾ الإسراء 85.
- سؤالهم عن ذي القرنين فأنزل الله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾" الكهف 83.
- سؤالهم عن السّاعة فأنزل الله تعالى﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾"الأعراف 187.

ثالثا: طرق معرفة أسباب النزول

تتجلى في النقل الصحيح عن معاشري التنزيل، وهذا النقل له مصدران:

- أن يكون الراوى صحابيا، فإذا كان كذلك كان سبب النزول مقبولا لأن رواية الصحابى المعاين للتنزيل له حكم المرفوع إلى النبى صلّى الله عليه وسلّم.
- إذا جاءت الرواية مرسلة عن الصحابى (أى سقط منها الصحابى) فلا تقبل هذه الرواية إلا إذا قويت واعتضدت برواية أخرى ولو مرسلة.

وعلى هذا الأساس فلا مجال للأخذ بالاجتهاد والنظر فى هذا العلم وإنّما مصدره الأساسي هو النقل المحرر عن الصحابة والتابعين.

رابعا : فوائد معرفة أسباب النزول:

زعم زاعم أنه لا طائل تحت هذا الفن لجريانه مجرى التاريخ، وأخطأ فى ذلك بل له فوائد نجلّيها فيما يلي:

1- معرفة الحكمة الباعثة على تشريع الأحكام ومنه تسهيل مهمة الاجتهاد والاستنباط.(مسلك للكشف عن المقاصد).
2- معرفة سبب النزول تعين على تيسير الحفظ وفهم المراد ، فالعلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.
3- تخصيص الحكم بسبب النزول عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب.
4- الوقوف على المعنى، وإزالة الإشكال: مثاله:

ما أشكل على مروان بن الحكم فى قوله تعالى: { لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [آل عمران: 188]فقال: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتى، وأحبّ أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون، فبين له ابن عباس أن الآية إنما نزلت فى أهل الكتاب- خاصة- حين سألهم النبى صلّى الله عليه وسلّم عن شىء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، وأروه أنهم بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، فأنزل الله فيهم : {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (187) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (188) } [آل عمران: 187 - 189].

- ومثاله قوله تعالى :"[وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ]" البقرة(115) يوهم بداية بعدم وجوب استقبال القبلة في الحضر أو السفر، لكن سبب نزولها يتعلق بمن صلى مخطئا القبلة.

خامسا: تعارض الروايات فى سبب النزول

يرجع تعارض الروايات فى سبب النزول إلى تعددها وهو نوعان:

- الأول: تعدد الأسباب والنّازل واحد.
- الثانى: تعدد النّازل والسّبب واحد.

الأوّل : تعدد الأسباب والنازل واحد

إذا جاءت روايتان في نازل واحد من القرآن وذكرت كلاهما سببا صريحا غير ما ذكرته الأخرى نظر فيها على صور أربع:

الصورة الأولى: كلاهما صريحتان لكن إحداهما صحيحة والأخرى غير صحيحة فالحمل على الصحيحة منهما وترد الأخرى

مثال:

- الرواية الأولى : روى جندب قال :" اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتته امرأة من قريش فقالت: ما أرى شيطانك إلا ودعك، فنزل - والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى"

قيل هي أم جميل بنت حرب امرأة ، وهي رواية صريحة لوجود الفاء التعقيبية (فنزل).

- الرواية الثانية: روى حفص بن ميسرة عن أمه عن أختها وكانت خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم " أن جروا دخل البيت، فدخل تحت السرير فمات، فمكث نبي الله صلى الله عليه وسلم أياما لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة ما حدث في بيتي جبريل عليه السلام لا يأتيني ؟ فقالت خولة: لو هيأت البيت وكنسته فأهويت بالمكنسة تحت السرير فإذا شئ ثقيل فلم أزل حتى أخرجته، فإذا جرو ميت، فأخذته فألقيته خلف الجدار، فجاء نبي الله صلى الله عليه وسلم ترعد لحياه، وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة فقال: يا خولة دثريني، فأنزل الله تعالى - والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى"، وهي رواية صريحة كذلك لوجود الفاء التعقيبية (فأنزل).

فالروايتان صريحتان لكن الأولى صحيحة والثانية غير صحيحة لأن في إسنادها من لا يعرف، فكان الحمل على الأولى .

الصورة الثانية:أن تستوي كلا الرّوايتين في الصّحة مع وجود مرجح لأحدهما على الآخر

مثال:

- الرواية الأولى: ما أخرجه البخاري من الحديث المروي عن ابن مسعود قال :" كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لو سألتموه فقالوا حدثنا عن الروح فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحي ثم قال " [قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا]" الإسراء (85).
فهي صريحة لكونها سؤالا مباشرا وهي صحيحة من حيث الرواية.

- الرواية الثانية: ما أخرجه الترمذي وصححه ابن عباس: قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئا نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فأنزل الله "[وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا]" الإسراء (85)، وهي صريحة لوجود الفاء التعقيبية (فأنزل) وهي صحيحة من حيث الرواية.

النظر في الروايتين يبين أن الثانية كانت بمكة وأن سبب نزولها سؤال قريش، أما الأولى فصريح في أنها نزلت بالمدينة وسبب نزولها هو سؤال اليهود وهو أرجح من وجهين:

01. رواية البخاري أصح من رواية غيره، إذ الثانية رواية الترمذي
02. راوي الخبر الأول ابن مسعود وهو شاهد للقصة خلاف ابن عباس إذ لا دليل على شهوده إياها

.

ومنه تكون الأولى هي الراجحة.

الصورة الثالثة: أن تستوي كلا الرّوايتين في الصحة ولا وجود لمرجح إحداهما على الأخرى، لكن يمكن الجمع بينهما بأن تكونا كلاهما سببا قد حصلا ونزلت الآية عقب حصولهما معا لتقارب زمنيهما وعملا بتعدد الأسباب ووحدة الحادثة.

مثال:آية الملاعنة.

- الرواية الأولى: القصة حدثت لهلال بن أمية مع شريك بن السمحاء، إذ قال النبي حينها البينة أو حد في ظهرك، فقال والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلن الله ما يبريء ظهري من الحد، فنزل جبريل ب " [والذين يرمون أزواجهم]"
- الرواية الثانية: أن عاصم سأل الرسول عليه الصلاة والسلام عن من وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه فقال قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبك، فأمرهما بالملاعنة كما ورد في الآية.

الروايتان كلاهما صحيح ولا مرجح لأحدهما على الأخر فيأخذ بهما معا لتقارب الزمن ولا تعارض بينهما، ولعله اتفق لهما ذلك في وقت واحد.

الصورة الرابعة: أن تستوي الرّوايتين في الرّوايتين في الصّحة ولا مرجح لأحداهما على الأخرى ولا يمكن الأخذ بهما معا لبعد زمنيهما، فيحمل الأمر على تكرار نزول الآية .

مثال:

- الراوية الأولى: روى أبو هريرة عن النبي عليه الصلاة والسلام أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على حمزة فرآه صريعا، فلم ير شيئا كان أوجع لقلبه منه، وقال: والله لأقتلن بك سبعين منهم، فنزلت - [وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ] النحل (126)
- الرواية الثانية: ما أخرج الترمذي عن أبي بن كعب قال أصيب يوم أحد من الأنصار أربعة ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا به فقالت الأنصار لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله "[وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ]النحل (126).

الراوية الأولى نزلت في أحد وكانت في شوال من العام 03 هـ، والثانية نزلت في فتح مكة وكانت في رمضان من عام 08 هـ وهي متأخرة عليها زمنا، فيحكم إذا بتعدد نزول الآية على حسب عدد الأسباب.

ثانيا: تعدد النازل والسبب واحد.

قد يكون أمر واحد سببا لنزول آيتين أو أكثر، وهو أمر ممكن الحصول لعدم تنافيه مع حكمة الإقناع والهداية.

المثال

- الرّاوية الأولى:

أخرج الحاكم والترمذي عن أم سلمة أنها قالت يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة لشيء فأنزل الله "[فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ"] آل عمران(195) .

- الرّواية الثانية:

أخرج الحاكم أيضا عن أم سلمة أنها قالت يا رسول الله تذكر الرجال ولا تذكر النساء، فأنزلت " [إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا"] الأحزاب (35)

وأنزل كذلك "[وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا]" النساء (32)

* * *